حَرَكِيَّة الفكر المسيحي الأوروبّي
في القرن السّادس عشر وما نتج عنها
في القرنين السّابع عشر والثّامن عشر

محمد شفيق

حَداني إلى طرق هذا الموضوع الرغبة في البحث عن تجربة لِغَيرِنا، نحن المسلمين، في حِقبة مَا من تاريخ ذلك «الغير» عسانا أن نستخلص منها عِبرةً نستفيد منها في معالجة أحوالنا الثقافية وأوضاعنا الحضارية. لقد ظَهر لي شيئاً فشيئاً من خلال ما أقرأه بشأن تطوّر الثقافة الأوروبية، أنّ بين ما نجتازه اليومَ من الاهتزاز في أنساقنا الفكرية، نوعاً من التشابه والتوازي مع ما مرَّت به أوروبّا الغربية في القرن الميلادي السادس عشر.

من المحقَّق أن المسيحيّة هي التي «لَتَّنَت» كُلِّيّاً أو جُزئيّاً، جلّ بلدان أوروبّا الغربية، ولم «يُلتِّنْها» الاستعمار الروماني من قبل إلاّ سطحيّاً ؛ المسيحيّة هي التي وحّدت لُغةَ الثقافة، أي لغة النّخبة، وجعلتها هي اللاّتينية، لأن الإنجيلَ المترجم إلى لُغة الرُّومان صار هو المُعتمَدَ في أوروبّا الغربية كلِّها، وصار هو المحورَ الوحيدَ الذي أضحت الثقافة تدورُ حوله، وهو البدايةَ والنِّهايةَ في كلِّ ما قد يتُوق إليه الإنسان من «التنوير للعقل والسموِّ بالفكر، والتهذيب للأخلاق، والجزاءِ

الحسن في الآخرة». واستمرّ الإيمان بهذا المُعْتَقَد دونما أدنى خلل يعتريه مدَّةَ أكثرَ من ثلاثة عشرَ قرناً، من أواخر القرن الثالث حتى أوائل القرن السادس عشر، بحيث كان من يخرج عن هذا الإيمان من الأفراد يُعتبر مصاباً بشذوذ. فماذا حدث في أواخر القرن 15 وأوائل القرن 16 حتى يُصابَ الفكرُ المسيحيّ الأوروبّي بالقلق، ويرى من نفسه ومن «ثوابته» ما يُريبُه ؟

حَدَثَ أن تكوَّنتْ تراكماتٌ معرفيّة داخليّة ناتجة من الدراسات الإنجيليّة نفسها، وأُخرى خارجيّة المصدر، اجْتُلِبتْ عَناصرُها بحُكم التجاور مع «دار الإسلام»؛ أو نُبِشَ عنها في طيّاتِ الماضي الأوروبّي ذاته، الماضي اليوناني بالدرجة الأولى، واللاّتينيّ بدرجة أصغر. وممّا يَسَّرَ انتشارَ الأفكارِ الجديدة المُتولِّدة من تلك التراكمات، وجودُ المطبَعة التي اخترعها الألماني Gutenberg بين 1434 و 1438، واخترع معها مِداداً يمكّن من الطبع على صفحتي الورقة الواحدة. وساعد على الرجوع بقوَّة إلى الفِكر اليونانيّ القديم نُزُوح عددٍ كبير من المثقّفين الإغريق عن الآستانة ولُجوؤهم إلى أوروبّا الغربيّة بعد دخول المسلمين الأتراك عاصمة «الروم» سنة 1453. ولقد حمل أولئك النازحُون معهم كَمِّيّات ضخمة من المخطوطات والمؤلّفات؛ فرحَّب بهم مُثقّفو الغَرب، أو بعضهم على الأقلّ، إذ «سَعِدوا، حسب قول أحد المؤرِّخين، بأن يتأتّى لهم الاطّلاع على المُتُونِ اليونانية كاملة بَدل الاكتفاء بنُبذٍ منها»، مشيراً بالنُّبَذِ إلى ما عرفَتْه أوروبّا الغربيّة من فكرٍ يوناني بواسطة المسلمين، في الأندلس، وفي صِقلِّية، وفي بلاد الشّام أثناء المدّة التي استغرقتها الحروب الصليبيّة.

وممّا ساعد على تفعيل التراكمات التي أُشيرَ إليها آنفاً حركة «الانبعاث» (La Renaissance) الفنّي التي انطلقت من إيطاليا، والتي ظهرت بوادرُها الأولى في أواخر القرن الثالث عشر، وبلَغت مداها في أواسط القرن السادس عشر بالذات، وبالقياس إلى مفعولها الإيجابي في الثقافة سُمِّيَت في ما

بعدُ مجموعة القرون التي سبقتها، المُبْتدئة بالربع الآخر من القرن الخامس (476)، والمنتهيّة بالسنة التي اكتشفت فيها أمريكا، أي 1492، سُمّيت هذه الحِقبة الطويلة من تاريخ أوروبّا بـ «القرون الوسطى» اعتباراً لكونها عهدَ رُكودٍ، وعهد فصل بين القديم والمتجدّد من الحضارة الأوروبّية؛ ولا يزال مفهوم «القرون الوُسْطى» في العقلية الأوروبّية مُشرَباً مَعْنَى التخلّف والتّقهقُر والإقطاعيّة، لأنّ الحِقبَة كانت مطبوعةً بالطّابع الدّيني الصّرف، فطغت عليها الثقافة اللَّفظية (Psittacisme) البَبَّغَائيةُ وَالاسمية، (Nominalisme)، فأُنْسِيَتْ فيها القِيَمُ الإنسانية التي آمَنَت بها أوروبّا في العصور القديمة، عصورِ ازدهار أثينا وروما وغيرهما من العواصم الحضارية. وشيئاً فشيئاً انتشر الاعتقاد بأن المثقّف هو المتمكّن من اليونانية واللاّتينية. فكان من الطّبيعي أن تتزعّم إيطاليا حركة التجديد، بما أن الانبعاث الفنّي توَلَّد من مُبادراتها، وبما أنّها هي الوارثة الشرعيّة لـ «اللاّتينيّة الفصيحة = Latinitas»، لُغةِ «اللاّتِيُوم Latium».

لكنّ حركيّة التجديد بالرجوع إلى القديم ما قبل المسيحية، امتدّ مفعولها إلى ألمانيا، وفرنسا وهولانضا، وانتشر الشعور بضرورة التخلّص من ثقافة «القرون الوسطى». فنَبغ في ألمانيا Johannos Reuchlin (1455–1522) الذي درس العِبريّة ودعا إلى تدريسها كي يُستنجَد بها في تفسير «العهد القديم»، وبرَّز في هولانضا Erasmus، فتعمّق في دراسة الإغريقيّة واللاّتينية كي يتمكّن من تفسير الإنجيل على الوجه الصحيح ؛ وندَّد Rabelais الفرنسي بسخف الطرائق التي كانت الدروس الكَنَسيّة تُلقَّن بها ...

وفي إيطاليا نفسِها واصلت جامعة Padova (Padoue) التابعة للبُنْدُقِية تدريسَ الفلسفة الرُّشدية، ثم تخطّتها إلى فلسفة مفسّر آخر لفكر أرسطو، وهو الفيلسوف اللاّتيني Alexandre d'Aphrodisias الذي عاش في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ب.م، والذي كان يَقول بتبَعيّة الروح لِلْبَدَن تَحْيَا بحياته

وتفنَى عند فنائه ؛ فأوحى بذلك أن الجنّة وجهنّم مُجَرَّدُ تخيُّلات. وأُولِعَ الأدباء بقراءة ما رُوِيَ عن الفيلسوف Celsus (ق II ب. م) خَصْمِ المسيحيّة اللَّدودِ. ومن أبرز أساتذة جامعة Padova الأستاذ Pomponazzi (1462–1525)، الذي نُعتَ بأنه «آخر ممثّل للتدريس الكَنَسِي» المطبوع بدكتاتورية الأستاذ ! (La scolastique) Magister Dixit، وأوّل رائد لعصرِ الأنوار في آن واحد»؛ وذلك لأنه جدّدَ أساليب التفكير بفضل اطّلاعه على فلسفة أرسطو في مخطوطاتٍ كاملةٍ غيرِ منقوصة، زَوَّدَه بها ناشر بُندقيّ غنيّ؛ وطعن في صحّة شرح ابن رُشد وكذا في صحّة شرح طوماس الأكويني (Thomas d'Aquin 1227–1274) لأرسطو، ونَبَذَ تلك الشروح. ودعا Pomponazzi إلى «ترك الإيمان بالوحْي وبالمعجزات جانباً في دراسة الأشياء الطبيعيّة»، وإلى إعمال العقْل وحده، فكَتَبَ ما يلي : «إنّ في دراسة الأسباب الطّبيعيّة لَكفايةً لكي تُفهَمَ الظواهر الطبيعيّة... إنه لشذوذٌ في الفكر ولَمَبْعثٌ للسُّخرية أن يُترك ما هو مشهود مَرْئي، وما هو مُبرهَن عليه بالعقل، وأن يُبحث عمّا لا يُشهد ولا يُرى وما لا يُتصوَّر...، وهذا ينطبق على مُعجزات المسيح ومعجزات الحَوَارِيّين». وبفضل عمل Pomponazzi اشتهرت جامعة Padova، فوفد عليها آلاف الطّلَبة من أوروبّا كلّها، وقُرِئت مؤلّفاته في كلّ الجامعات ؛ وقد كان من تلامذته أو من القرّاء الذين كَرَعوا من مَعين فِكره Rabelais (1494-1553) وMontaigne (1533-1592) الفرنسيان اللّذان تألّق بفضلهما النثر الفرنسي في القرن السادس عشر، وكذلك المفكّرون الّذين نُسبوا إلى الإباحية والفجور «Les libertins» في القرن السابع عشر، لأنهم كانوا يَشُكّون في نُزول الكُتُب السماويّة. ويُعتبر فلاسفة «عهد الأنوار» تلامذةً روحيّين لـ Pomponazzi، لأن القرن الثامن عشر هو القرن الذي سَيبلُغ فيه نفوذ أُطروحاته أقصى مداه. ومن الآراء التي مهّدت الطريقَ لما ذهب إليه Pomponazzi، تلك التي عبّر عنها قبلَه مواطنه Ficino (1433– 1499)، إذ كان يكتب ويقول : «إن في قُدرة الإنسان أن يُغيِّر الأشياء،

وأن يُحسِّن صُنْعَ الطّبيعة، ويُتمِّمه بما يخترعه من الأدوات والآلات، وما يَبْتَنيه من مُنشآت؛ وبتطوير المَصنُوعات وتطوير طرائق صُنعها سيطور الإنسان نفسه وكينونته ويضعها في حالة تحسّن مستمر». وهكذا نشّأ Ficino مفهوم التقدّم (Le progrès) في أذهان المفكّرين الأوروبّيّين، وهو مفهوم لم يسبق له أن خامَر أذهان الفلاسفة اليونان أنفسهم. وقد تجسّدت رؤية Ficino للأمور في أعمال المهندس Leonardo de Vinci (1452–1519) الذي كان في آن واحد معمارياً ونحّاتاً ورسّاماً وصانعاً للآلات الحربيّة وغير الحربيّة (آلات النسج). وكان De Vinci لا يُسند تقنياته إلى النّظريّات الفلسفية المُجرّدة، بل كان يرى أن الواقع الملموسَ لا يُدرَك كُنهُه عقليّاً إلاّ في العمليّات والمعادلات الرياضية ؛ وكان يقول «لايُمكن أيَّ بحثٍ أن يُسمَّى بحثاً علْمياً ما دام لا يعتمد على البرهنَة الرّياضيّة ...»؛ وكان يعتبر أن الكونَ كلّه قابل لأنْ يُقاسَ وأن يُحلَّلَ جوهرُه بواسطة «العلائق» (Les relations) الرياضيّة. وكان من الذين يرون أن الأرض ليست هي مركزِ الكون وأن من قد يَصعَد إلى القمر سَيَرى الأرض كما نرى القمر، وكان من الذين عارضوا النظرية القديمة التي ترى في الأشياء «جَوْهراً وعَرَضاً»، فجعل الكوْنَ «مكاناً وزَمَناً، وكُتَلاً، وطاقات». وذهب مذهبَه مُواطِنه الرّياضي Niccolo Fontana (1499– 1557) الملقّب بـ Tartaglia، وسار أبعد منه، فبيّن أن التّفَلْسُفَ لا طائل من ورائه ما لم يستند إلى الحسابات الرياضيّة، ودعا إلى الإيمان بأنّ «الواقع في الحقيقة ما هو إلاّ بُنْيَةُ رياضية خَفيّة». فغلّب نظريّةَ «الكَمّ» على نظريّة «الكيف». وممّا جعله يتجرّأُ على هدْم النظريات الأرسطوطالية كون علْم الرياضيّات قد قطع شوطاً هامّاً في أوروبّا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بفضل الرياضيّ الفلَكي الفرنسي Nicolas Oresme (1325–1382)، مُخترع الهندسة التحليليّة وواضعِ الأسُس الأولى للحساب التفاضلي (Le Calcul Infinitésimal). وهكذا صارت آراء أفلاطون تُرجَّح بقوّة على آراء أرسطو. لكنّ Pomponazzi ومن تتلْمذ له أوّلوا فِكرَ أرسطو وجعلوه

رائداً «للحلولية» أو «وحدة الوجود» (Le Panthéisme)، بمعنى أن الخالقَ وما خلق ذاتٌ واحدة، أو بعبارة أخرى، «العالم مادّة يُخامرُها الرُّوح القُدّوس»... كما قالوا.

وفي هذا السّياق من الغَليان الفكري الهادف إلى وضعِ المعتقدات الدّينية على مِحَكِّ العقل المجرّد، حدث أن كثُرت «المُعجزات» من النَّمط المألوف عند المسيحيّين. ففي سنة 1514 شاع أن الصّورة المعروضة في إحدى كنائس Brescia في شماليِّ إيطاليا فَتحتْ عينيْها ثمّ أغمضتْهما يومَ عيدِ الخمسين Pentecôte؛ وأن تماثيل القدّيسين صارت تَعْرَقُ كما يَعْرَقُ الإنسانُ الحيُّ عند خجله أو خوفه وتحيُّره... وأن تمثال القدِّيس «Januarius» الموجود في Napoli تقطُر منافذه دَماً من حين لآخر، وأن في بعض الأيام تشرق ثلاثُ أشمُس ويتبوّأُ كَبِدَ السماء ثلاثة أقمار، واستمرّ الإيمان في الأوساط الشعبيّة بوقوع هذه الظواهر مدّة عُقود.

فلمّا اخترع Galilei ميزان الحرارة في أواخر القرن، تبيّن أن ما كان يقطرُ من تمثال القدّيس Januarius إنما هو مادّة حمراءُ مَخزونة في تجاويفه تذُوب كلّما جاوزتِ الحرارة تِسعَ عشْرةَ درجة. وتبيّن أن الكنيسة، أي السّلطة الدينيّة، هي التي كانت من وراء تلك الخُزَعبِلات كلّها، ساعيةً إلى إثارة العقول الساذجة ضدّ التيار الفكري الجديد، وهو تيّار صار يقوَى سنةً بعد سنة، لأن النظريات المُجدِّدة لرؤية الإنسان للكون صارت تفرض نفسها شيئاً فشيئاً، مع أن البابا أدان الإيمان بأن الأرضَ كروية الشكل. وليس من المُفارقة في شيء أن يكون من بين الرُّهبان والقسِّيسين من يُسهم بقوّة في تجديد الرؤية للكون، بما أنّ القسّيسين والرُّهبان كانوا من أكثر الناس تملُّكاً للأدوات المعرفية. وقد بَرَّز منهم في النصف الأول من القرن 16 القِسِّيسُ البولانضي Kopernik Nicolaj (1543-1473)، وهو من خرّيجي جامعة Padova الإيطالية. انكبَّ Kopernik على دراسة الفلَك كما تصوَّره Ptolemaios (90–168)، فوجد أن نظريّة هذا الأخير

ناقصة قاصرة، فشرع في إعادة النظر في الأشياء، واعتمد في عمله على الرّياضيّات. فاستمرّت تحليلاتُه وتركيباتُه لعناصر الموضوع أكثر من ثلاثين سنة، حتى توَّجَها بتحرير مؤلَّفه المشهور «De revolutionibus orbium caelestium bibri sex»، وخوفاً من غَضَب السلطة الكَنَسية لم يجْرؤ Kopernik على نشر مؤلَّفِه إلاّ عندما شعر بقُرب أجله ؛ وبالفعل لم يُنشر كتابه إلاّ بضعةَ أيّام قبل وفاته، سنة 1543. فتمَّم عملَه بَعدَه الفلَكيّان Galilei (1564–1642) الإيطالي وKepler (1571–1630) الألماني. فحاكمت Galilei إحدى محاكم التفتيش سنة 1616، واضطرَّتْه إلى التنكُّر العَلَنيِّ للقول بأن الأرض كوكب سابح في الفضاء حول الشمس. وعند خروجه من المحكمة وهُبوطِه في درَجِها لم يتمالَك من أن يُجمجِمَ، بين مسموعٍ وغيرِ مسموع، عبارتَه المشهورة «Eppure, si muove !»، «ومع ذلك، إنها لحارِكةٍ !»

وممّا تجدر الإشارة إليه والتأكيد على التذكير به أنّ رياضيّي أوروبّا وفلكيِّيها في القرن السادس عشر لم يتمكّنوا من تغيير رؤاهم العِلْمية إلاّ بفضل اطّلاعهم وتمثُّلهم الشامل لما أنتجَه عُلماء اليونان، أمثال Aristarkhos (310–230 ق.م)، الذي أدانه فلاسفة زمنه ونَسبوه إلى الكُفر، لأنه قال بمركزيّة الشمس في نظام الكواكب بدل مركزية الأرض، وأمثال Eratosthenês (284–192 ق.م)، وهو أوّل من أخرج بالحساب أن طول محيط الأرض 250.000 غَلْوَةٍ يونانية (Stades)، أي 45.000 كلم عِوضَ الـ 40.000 المعروفة اليوم، ولم يجادلْه أحد في كُرَويّة الأرض أو عدم كُرويَّتها ؛ وأمثال Hipparkhos (القرن 2 ق.م)، الذي كان أوّل من قَسَّم الدائرة إلى 360 درجة، والدرجة إلى 60 دقيقة، والدقيقة إلى 60 ثانية، كما كان هو أوّل من صنع الأسطُرلاب (astro-labion)، واعتمد بانتظام على العمل بالإحداثيّات ؛ وأمثال Ptolemaios (90–168) الذي أخذ عنه الجغرافيّون المسلمون وعرّفوا بكتابه «المِجِسْطِيّ» (Megistos

Biblos، باليونانية، أي الكتاب العظيم)؛ وPtolemaios هو الذي أحدث العمليّات الحسابيّة لمعرفة مواعيد الخُسوف والكسوف، وحاول لأوّل مرّة تقديرَ المسافة بين الأرض والقمر، ثم بين الأرض والشمس، واخترع عدّة أدوات للرَّصْدِ وطوّرَ الأدوات التي اختُرِعت قبل عهده ؛ وقد بلغ عدد النجوم التي رصدها 1022 نجْم.

وَلْنَعُد، بعد هذا الاستطراد، الذي لم يكن منه بدٌّ، إلى مسار حديثنا، لنقول إنّ الحركة الثقافية التي انطلقت بقوّة في آواخر القرن الخامس عشر وازدادت قوّة في أوائل القرن 16 صارت تُشوِّش على المسيحيّة الكاثوليكية أيّما تشويش، لأنها لم تعد تجعل من الكتاب المقدّس مرجعها الوحيد ولا الأهمِّ، بل صارت تُنوِّه بـ «الإنسيَّة»، أي المذهب الفلْسفيِّ القائل بأولويّة القِيم الإنسانية، وتجعل مثلها الأعلى هو الوصول بالبشرية إلى حيث تستنير بمبادىء «اللّطافة والرحمة والكرم والإيمان الراسخ بطيْبوبة الإنسان وبضرورة التواضع والتّسوية بين الناس...» فصار لزاماً على التيّار الكَنَسيّ المُضادّ أن تصدر عنه رُدُود فعل قويّة؛ فأمر البابا الفنان Michelangelo (1564-1475) بأن يرسم على الجدار الرئيسي (الأمامي) للكنيسة Sextine في الفاتيكان «صورة القِيامة» يرمز فيها إلى أن الدّوران الحقيقي ليس هو دوران الأرض كما تصوّره Kopernik، لكن هو الدّوران المرعب الذي ستدوره البشرية جمعاء حول المسيح يوم القيامة، ذاهلةً ينتابها الهلع الشديد، لا يرجو السلامة إلاّ عدد قليل من الحواريّين والقدِّيسين، بقلوب واجِفَة وعقول شاردة. وحذا حذْو Michelangelo رسّامون آخرون وصوّروا المسيحَ وحوله الدَّهماءُ الكالِحَة الوجوه، تَشُقّ عليه رؤيتُها (Tiziano Vicellio المعروف بِـ Le Titien، 1490-1576) ... وهكذا ... ولم يَتَفطَّن رجال الدّين إلى ضَعْفِ الحُجَجِ التي كانوا يُحاجّون بها – وأنّى لهم ذلك ! – ولم يتفطَّنوا حتى إلى كونهم لم يعودوا صالحين لِيُقتدى بهم، بل كَثُر من رجال الكنيسة ونسائها الفُسَّاقُ الفُجَّارُ،

وسيْطرت على نفوس كبارهم الرغبة في الإثراء، وغلب الشره على نفوس صِغار القِسِّيسين والرّهبان. ولم يسلَم البابا نفسُه من ممارسة الارْتشاء والمحسوبية عند توزيع المناصب. فاغتنم الدّاعون إلى عقلنة الدّين مواتاة الظروف للتحامل على عدد من المُعتقدات، كالإيمان، مثلاً، بأن على البشرية كافّةً إصْرَ الخطيئة الأولى التي أخرجت آدم من الجنّة. فصار قِسِّيسون ورهبانٌ من النزهاء ذوي النّيات الحسنة يفكّرون في العمل من أجل إصلاح الدين، فأدركوا أن ذلك الإصلاح لا يمكن أن تُسْتَنْبَتَ بذوره إلاّ في تُربة الإنسية اليونانية نفسها. فوضع القِسِّيس الفرنسي Lefèvre d'Etaples (1450–1537) الفلاسفة الإغريق في مصافِّ الأنبياء، وقام بإنجاز أوّل ترجمة للإنجيل إلى الفرنسية. وعمّق الراهب Erasmus (1469–1536) الهولانضي دراساته الإغريقية واللاّتينية، وحاول في أوّل مرحلة أن يوفِّق بين عقل اليونان والإيمان بما ورد في الإنجيل، ودعا إلى ترجمة الإنجيل إلى جميع اللغات، حتى إلى لغات المسلمين، وحاول جاداً أن يُصلح التفكير الكنسيّ بالتي هي أحسن. فعارض Luther الألماني في ما يتعلّق «بحرّية الاختيار»: كان يرى على عكس ما يرى Luther، أن الإنسان حُرٌّ في اختياراته ومسؤولٌ عن أعماله. فأثار مؤلّفُه De servo arbitrio حفيظةَ Luther، فتَمّتِ القطيعة بين الرجُلين، وعزم هذا الأخيرُ أن يثور على الكاثوليكية، وأسّس المعابد الأولى للُّوثيريَّة (1526–1527–1528) في ألمانيا، ثم في السويد، ثم في الدّانمارك. فسانده القِسّيس السّويسري Zwingli، (1480-1531) فانتشرت اللُّوثيرية بسرعة في أوروبّا اللاّتينية؛ فلم تَعُد البابويّة مرجعيّة لها، لأنها صارت تدعو إلى التمسُّك بمَتْن الإنجيل وحده، نابذة ما سِواه من المرجعيات اللاّهوتيّة.

فقرّرت البابوية أن تُصلح الكاثوليكية، وروّجت في الوقت نفسه هذا الشعار: «لاخلاص للمسيحيّة إلاّ بالخضوع للبابا !»، و«حَرَمَتْ» Luther (Excommunié) (1521)، فاغتنم اللاّهوتيّون الكاثوليك الفرصة لإدانة Erasmus القائل بحرّية

الاختيار (Le libre-arbitre) وهكذا تكوّنت في الفكر المسيحيّ ثلاثة تيّارات افترقت طُرقُها في الثّلث الأول من القرن 16 : تيّار الكاثوليكية التقليدية المحافظة، الهامّة بالإصلاح العاجزة عن الإصلاح ؛ والتيار اللُوثيري الذي أسّس للبروتيستانتيّة، والتيّار «الإنسيّ» الذي سيكون له أُدباؤه وشُعراؤه طَوال القرن السادس عشر: Montaigne وَ Budé (1540-1467) الفرنسيان وَ Hutten (1523-1488) الألماني. وقبل القرن السادس عشر Petrarca (1304– 1374)، وPoggio (1380–1459) وValla (1407–1457)، في إيطاليا خاصّة. وقد قال الكاتب السويسريّ Philippe Monnier (1864–1914) عن الحركة الإنسِيّة «إنها كانت ترمي إلى محْو المسيحية من الوجود»، وذلك في مؤلّفه Quattrocento (القرن XV).

فصارت السلطة الكنسية تحاول بجدّ أن تقف في وجه «البروتيستانتية»، وفي وجه الحركة «الإنْسيّة» معاً. فعمدت إلى تشجيع نوع من «التصوُّف» المسيحي. فأنشأ Inigo Lopez de Loyola (1491– 1556) البَسْكِي «رهْبانيّة يسوع» La Compagnie de Jésus سنة 1540، التي اتّخذت العبارة الآتية شعاراً لها : «Oratio non ratio». فألّف De Loyola كتابه «التّمرينات الرّوحيّة» «Les exercices spirituels» (1548) الذي كان أشبه شيء بمجموعة من الضوابط العسكريّة، ثم ألّف كتابه «الدّساتير» «Les Constitutions»، الذي دعا فيه المريد إلى طاعة رئيسه «كما يطيع المَيِّتُ Perinde ac cadaver. ويظهر أن الشِّعَارَين oratio non ratio وPerinde ac cadaver، أُخذَتْ من تعابير الصوفية الإسلامية «الذِّكر لا الفكْر»، و «ما عند الميِّت ما يقول قدَّام غَسَّالُه !»، ويدلّ على ذلك أن De Loyola فرض على مُريدي «رَهبانية يَسوع» خَمْسَ صلوات في اليوم تُقامُ أولاها في منتصف اللَّيْل.

وفي هذه الأثناء ازدادت الحركة البَروتستانتيّة قوّة وانتشاراً؛ وقد كان من وراء هذه القوّة وهذا الانتشار، في الثلاثينات من القرن 16 القِسّيس الفرنسي

(Cauvin Calvin 1509 –1564) اللاّجىء إلى سُويسرا، خاصّة بعدما ألَّف كتابه : l'Institution chrétienne باللاّتينية وترجمه إلى الفرنسية (1536–1541). وقد كان Calvin متمكّناً من اللّغتين العِبرية واليونانية أيضاً. وتكريساً لرفضه مبادىء الرهبانيّة الكاثوليكية أقدم على الزواج. ومن البلدان التي تبنّت مذهبَه الإصلاحي البروتستانتي هولانضا وإنجليترّا وسكوطلانضا، وفرنسا جُزئياً. وفي إنجليترّا بالذات اغتنمت الملكيّة الفرصة فتخلّصت من سلطة البابا نهائيّاً، وأعلن الملك Henry VIII سنة 1533 أنه هو رئيس الكنيسة الوطنية (The Anglican Church)، وخوَّل لنفسه الحقّ في أن يمارس السلطة الرّوحيّة بالإضافة إلى السلطة الدّنيويّة. فازدادت البابوية حنقاً على «المارِقين»؛ فقرّر البابا العودة إلى ممارسة «التفتيش» (1542.07.21)، وجعل من «رهبانية اليَسوعيّين» ميليشيّة دينيّة أسند إمْرَتَها إلى de Loyola وكلّفها بقمْع «المُنْشقِّين والمُلْحدين»، فعملت في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا خاصّة، أي في البلدان اللاّتينية. فاستغلّ أنصار الإنسيَّة البلْبَلة الواقعة في التنظيمات الكنسية، ونشروا فكرة ضرورة الاحتكام إلى العقْل وحده، وأشادوا بالفلسفة الرُّشدية وبما وراءها من فلسفة يونانية، ودرَّسوها علانيّة أو تحت غطاء المجادلات الدّينية؛ فكان زعماء الإنسِية هم قدماء جامعة Padova. فلم يلبث البابا Paul III أن تَفَطّن إلى ضرورة مواجهة الأخطار المُحدقة بالكاثوليكيا بأساليب أخرى غير أساليب الزّجْر والرّدع. وبإيعاز من Carlos Quinto، امبراطور ألمانيا، ملك إسبانيا وأمير هولانضا، أمر «مجمعَ الأساقِفة» بتدارس الأوضاع (22 ماي 1542)، فانعقد مجلس «المجمع» (Concile) في مدينة Trento الإيطالية ثلاث مرات (1545–1549، و1551–1552، و1562–1563) من أجل البحث عن طرائق لتحقيق ما سُمِّيَ من بعد بـ «الإصلاح المُضادّ» (Contre-Réforme) ؛ فبالإضافة إلى ما أُدْخل على معطيات العقيدة نفسها من تعديلات، شرعت السُّلطة الكاثوليكية في بَثّ شعارات كانت تَرَى أنها فاعِلَة، مثل شعار «فلْنُنَصِّرْ الإنسِيّة». وشرَعت فوق ذلك في العمل من أجل

تحسين طرائقها التعليميّة؛ فقام اليسوعيّون بتجربة بيوداجوجيّة استغرقت 35 سنة (1564–1599)، فأسفرت عن عُقْم التربيّة القَسْرية وأظهرت شرورَها، وبيَّنت في الوقت نفسه فوائد التربيّة التحريرية، «المُنَصِّرة للإنسيّة» في نظرها. فأنشأ اليَسوعيّون عدداً من «المعاهد» Les collèges. فقلّدتْهم جمعيّات دينيّة أخرى من اللاّتي أدركت أن «الإقناع أحسن مردوديةً من الإكراه في زرع الإيمان» (Les oratoriens)، de Port-Royal ; les Jansénistes «Les Petites Ecoles» للبنات. فلمّا يكُنْ قد مَضى من القرن السّابع عشر ثُلثُه الأوَّل حتّى ازدهَرت في أوروبّا كلّها التربيّة المجدَّدَة الطرائق، لاسيّما أن أحد رجال الدّين التّشيك، وهو Komensky (Comenius) (1592–1670)، نظَّر للعمل التربوي في ثلاثة مُؤَلَّفات لها مكانتُها في الآداب التربوية حتى يومنا هذا. ولم يكن في حُسبان الجمعيّات الدينيّة المجدِّدة لأساليب التدريس أن من مؤسّساتها سيتخرّج أجيال من المفكّرين والفلاسفة المتحرّرين، كُلّيّاً أو جزْئيّاً، من قيود العقيدة المسيحيّة، أمثال Descartes، (1596–1650) (Jésuite) وR. Simon (Oratorien) (1633-1712)، في القرن السابع عشر؛ وMontesquieu (1689-1755) (Oratorien) وVoltaire (1694–1778) (Jésuites) وغيرهما في القرن الثامن عشر؛ وهم الذين عبّدوا الطريق لِلعَلْمنة واللاّييكيّة. وبالتّوازي مع تحرُّر الفِكر صارت اللّغات الوطنيّة تتغلّب على اللاّتينية في الإنتاج الأدبي. ففي إيطاليا فرضت اللّهْجة الطوسكانية نفسها، خاصّة بعدما ألّف بها Machiavelli (1469–1527) كتابه IL Principe. وفي إسبانيا نبغَ Cervantes (1547– 1592) نبوغاً لم يكن يتوقّع ؛ وفي فرنسا اشتهر المفكّر Montaigne (1533–1592) والرِّوائي Rebelais (1494–1553) وثُلّة من سبعة شعراء سُمِّيت la Pléiade؛ وفي ألمانيا انطلق التأليف في اللّغة الألمانية السائرة في طريق التوحيد والتنميط مع الكاتبين Sachs (1494–1576) وFischart (1546–1590)، وذلك بمجرّد ما فرض Luther نوعاً من التَّعْبير اللّساني في ترجمة الكتاب المُقدَّس. (وسَيَسْتمرّ التَّباري بين الألمانية واللاّتينية

في ألمانيا حتى أواخر القرن 17، فيُتَخلّى إذّاك عن اللاّتينيّة نهائيّاً في الإنتاج الأدَبي). أمّا في بريطانيا، فلا يخفى ما أكسبه المسرَحيّ Shakespeare (1564-1616) للُغة الإنجليزية من شهرة، في القرن 16 بالّذات وأوائل القرن 17.

لكن السلطة البابوية ومُناصريها في عمليّة «الإصلاح المُضادّ» لم يُرضِها شيء من هذه التطوُّرات كلِّها، فوصفتْ كلّ جديد في الآداب أو الفنون «بالأشْوَهِ المَـسـيـخ» (Barocco (Es), Baroque (An), Baroch (Al), le Baroque (Fr),) Barocco (It)، من البرتغالية: Barroco = الدُّرَّةُ العَوْجاء)، فلزمتْ هذه الصِّفة كل ما أبْدعه الفنّانون، وخاصّة منهم المعماريّون، من القرن 16 حتّى القرن 18، وكذلك كلّ ما أبدَعه الكُتّاب والشّعراءُ في أواخر القرن 16 وأوائل القرن 17 بالخصوص.

المراجع

1) "Histoire générale des Civilisations" لمجموعة من المؤرّخين، تحت إشراف Maurice Crouzet، سبعة مُجلَّدات، نشر P. U. F.، 1967، باريس (وبخاصّة المجلّدات الثلاثة : الثالث والرابع والخامس، المكوّنة من 1953 صفحة).

2) "Histoire Mondiale de l'Education" لمجمُوعة من المؤرخين، تحت إشراف Gaston Mialaret وJean Vial، أربعة مُجلَّدات، نشر P. U. F، 1981، باريس (وبخاصّة المجلّدان الأول والثاني، المُكَوَّنَان من 783 صفحة).

3) "Pédagogie générale : études des doctrines" للمؤلِّفَيْن J. Leif وَ G. Rustin مجلّد واحِد، 381 صفحة، نشر Delagrave، 1959، باريس.

4) «النَّصُّ المُؤَسِّس وَمُجتَمَعُه» لصاحبه خليل عبد الكريم، الأستاذ السابق بجامعة الأزهر، والمُتَوَفَّى، رحمه الله، سنة 2004، بعد أن أُقيل من مَنصبه واضْطُرَّ إلى الهجرة ؛ سفران اثنان، نشر «دار مصر المحروسة»، الطبعة الثالثة، 2002. (وفي هذا الكتاب يتجلّى أنَّ هناك، في العالم الإسلامي، تَيّاراً فكرياً يَنْهَج نَهْجَ «الإنسية» عند حدوثها في أوربّا. لقد تعامل خليل عبد الكريم مع تفسير النصّ القرآني كما حاول Richard Simon أن يتعامل مع تفسير نَصَّي العَهْد القديم والعَهد الجديد مَنَ الإنجيل).